الفصل الأول

التدريب الأول

«ألا تنوى أن تعلمنى قيادة السيارة»؟

قلت: «إنى أنوى أن أعلمك أشياء كثيرة.. فى أوانها».

قالت: «مثل..»؟ وأمالت رأسها الصغير وألقت إلىَّ ابتسامة — أعوذ بالله من سحرها.

فبلعت ريقى، وقلت: «أووه.. أشياء كثيرة كما قلت: مثل الرقة واللطف واللين وحسن المواتاة ... أشياء كثيرة».

قالت وعلى فمها — وفى عينيها — ابتسامة المتسامح: «ألا ترانى لطيفة؟..».

قلت: «عفوا.. إنما أعنى أن هذه المسائل نسبية، فقد تكونين فى الواقع ألطف فتاة تزين هذه الكرة الأرضية بوجودها.. وقد أكون أنا لا أحس ذلك ولا أعرفه، لبلادة فيّ أو.. جهل.. أو..».

فأشارت بكفها وقالت: «يكفى.. سأحاول أن أكون لطيفة معك، فكن لطيفا وقل لى متى يكون الدرس الأول؟».

قلت: «الآن.. تعالى.. ضعى هذا المعطف على كتفيك».

فأولتنى ظهرها لأضع عليه المعطف، وكانت تنظر إلى وأنا أفعل ذلك ببطء.

وانحدرنا إلى الطريق وركبنا، فقالت وأنا أهم بالمسير: «ألا تلبس المعطف؟ إن الجو بارد».

فهززت رأسى وقلت: «كلا.. سأتصبب عرقا بعد دقائق — بل ثوان — من ابتداء الدرس الأول، ولكنك تعرفيننى.. لا أهرب من الواجبات مهما كلفتنى».

وقالت: «هل هذا واجب شاق»؟

قلت: «سترين»... ولم أزد.

ووقفنا فى مكان خلوى رحيب لا خوف فيه من أن ندوس طفلا أو نصطدم بشىء، فقلت لها بلهجة الجد: «اسمعى من فضلك.. الآن يبدأ الدرس، التدريب الأول.. فاذكرى دائما أن هذا درس وليس بلعب.. اسمعى الكلام وافهميه واعملى به ولا تحوجينى إلى شد شعرك أو قرص أذنك أو خدك».

وكانت تبتسم حينما شرعت أتكلم، فلما رأتنى جادا لا أضحك ولا يبدو علىَّ أنى أمزح، صارت الابتسامة كنور القمر المرتعش على صفحة الغدير الصافى، فرق لها قلبى، ولكنى تحاملت على نفسى وغالبتها وحدثتها — أعنى نفسى — بأن كل شىء خليق أن يفسد إذا لم أظهر الجد.

وقالت بضعف: «إنى مصغية».

قلت: «هذا حسن.. ابتداء طيب.. والآن، ادنى منى.. التصقى بى».

قالت: «لماذا»؟

قلت: «لتتناولى العجلة وتتدربى على إدارتها بالضبط والإحكام الواجبين».

فحاولت أن تتناولها من غير أن تلقى بجسمها على صدرى، وكان هذا متعذرا. وأدركت أنها مترددة، فقلت: «بالطبع ستزهق روحى وتتقصف أضلاعى وتحتبس أنفاسى.. ولكن هذا لا مفر من احتماله».

قالت: «صحيح»؟

فخفت أن تدفعها الرقة والإشفاق علىّ، إلى إيثار العدول فقلت: «إنّ فى قولى هذا بعض المبالغة ولا شك، ولكنى أعنى أنه إذا كان لأحد منا أن يتردد أو يخشى شيئا.. فإنى أنا الخليق بذلك».

فظنت أنى غضبت أو أنّ ترددها جرح إحساسى وآلمنى، فقالت: «إنّى آسفة».

فابتسمت لها صافحا عنها.. وقلت: «تفضلى..» وتناولت كفيها فوضعتهما على العجلة وأنا أسأل الله أن يلهمنى القوة ويرزقنى القدرة على مقاومة هذا الإغراء. وصار كتفها على صدرى، وشعرها على وجهى، وأرجُه فى أنفى، وصفحة خدها الغض المشرق تحت عينى.. فلو مططت بوزى قليلا للمسته شفتاى. وسرنا خطوات ترنحت فيها السيارة كأنها سكرى، وأحسب أن لها — أعنى للسيارة — عذرها.. فما لمست عجلتها كف كهذه، رخصة بضة دقيقة.. وكنت أنظر إليها، فأشعر أنى أوشك أن أرتد إلى عصور الاستيحاش، وأحس أنى أريد أن آكلها لفرط حلاوتها، ولم أكن أحس — وهى على صدرى — أن فى بدنها عظاما من فرط الرقة والطراوة. وكان شعرها يدير رأسى ويسكرنى بعطره الطبيعى. وكانت يدى اليمنى على كتفها، فكنت بجهد أردها عن ضمها إلىّ.

وقلت لها — وقد وقفنا قليلا لنستريح، فقد كانت جلستها متعبة: «لن تستطيعى أن تختفى عنى بعد اليوم كما فعلتِ من قبل»

قالت: «كيف؟ ماذا تعنى»؟

قلت: «لا أظنك تعرفين ما أعنى، فمن حقك أن تسألى وتعجبى.. لقد انتقلت فجأة من بيتك فأصبحت يوما فإذا أنت غير موجودة حيث ألفت أن أراك.. لا أدرى كيف تسنى لك أن تنتقلى من بيت إلى بيت من غير أن أشعر بذلك ونحن جاران متقابلان.. ولكنك نجحت.. غافلتنى واختفيت».

فقالت: «على فكرة.. كيف اهتديت إلى البيت الجديد»؟

قلت: «أوه.. هذه حكاية طويلة.. رأيت أخاك فتبعته من حيث لا يشعر.. لو كنت شممت شعرك كما شممته اليوم.. لما احتجت إلى أخيك أو غيره».

فضحكت وقالت: «لم أكن أحسب أنك..» وأمسكت.

فقلت: «قوليها.. ولا تخشى أن تسيئى إلىّ. نعم، إن فى بعض خصائص الكلاب.. ومن يدرى، لعل الله كان يريد فى أول الأمر أن يخلق من طينتى كلبا ثم بدا له أن هذه الطينة لا تليق بكلب فصنع منها هذا الإنسان الذى يجلس إلى جانبك. ومن هنا بقيت لى حاسة الشم فى الكلاب، ولكن قوتها فى شىء واحد.. ما شممت شعرا إلا بقيت رائحته فى أنفى.. ولو أنك وقفت بين عشرين فتاة وعصبت لى عيناى لاستطعت أن أهتدى إليك وأخرجك من بينهن بأنفى.. بمجرد شم الشعور».

فدهشت وقالت: «هل تتكلم جادا؟»

قلت: «فى وسعك أن تجربى. هاتى عشرين فتاة.. وأرسلى لهن شعورهن وقفى بينهن وضعى على عينى ما شئت.. ودعينى أشمكن. نعم، فىّ من الكلب هذا.. وليت لى منه مزاياه الأخرى.. بل ليتنى كنت كلبك على الخصوص».

فضحكت وقالت: «ولماذا؟ لا تخف أن تتكلم فإن حديثك لذيذ».

قلت: «أشكرك.. لو كنت كلبك لكان من حقى المعترف به مثلا أن أقعد بين يديك فى حيث تكونين. لا أُحرم ذلك ولا يستطيع أحد أن يقصينى عنك، ولو حاول أحد ذلك لعضضته ومزقت ثيابه ولحمه ولأدبته.. نعم.. ولكان من حقى أن أضع رجلى على.. على.. فى حجرك.. وألحس لك وجهك كلما شئت ذلك وأشتهيته.. معذرة فإن الكلب لا يحسن التقبيل.. وهذا هو البديل عنده من القبل.. ولو كنت كلبك يا فتاتى الجميلة لكنت حارسك الأمين، وفارسك الذى لا يقصر ولا يغفل ولا يسهو.. ولو كنت كلبك لكان من حقى على الأرجح — فإنك رقيقة القلب — أن أنام على سريرك..».

فصرخت ووضعت راحتها على فمى فضحكت، وقلت: «لا تخافى فإنى لم أصر كلبا مع الأسف.. أبى الحظ هذه النعمة على المسكين الذى هو أنا».

واستأنفنا الدرس وعدنا إلى التدريب، وأقبلنا على ذلك بعزم لا يفتر وإرادة لا تلين أو تضعف، ثم وقفنا وأراحت يديها وتنهدت وقالت: «تعبت».

قلت: «إنى آسف.. استريحى».

فسألتنى: «هل تعبت أنت أيضا»؟

قلت: «كلا.. إنما تعبت من التفكير».

قالت: «فى أى شىء كنت تفكر»؟

قلت: «هل تصدقيننى إذا أخبرتك»؟

قالت: «لم لا أصدق؟ هل هو شىء غريب جدا»؟

قلت: «نعم.. جدا.. لقد كنت — وأنت على صدرى — أشتهى أن أمرغ نفسى فى هذه الرمال وأن أعوى كالكلب».

فضحكت حتى ترقرق الدمع فى عينيها، وقالت بعد أن وجدت لسانها: «ولكن لماذا؟.. إن هذا شىء غريب».

قلت: «لا غرابة على الإطلاق.. ألم أقل لك: إن فىّ من الكلب خصائص.. اشتهيت أن أفعل ذلك عسى أن تصنعى معى ما كان يمكن أن تصنعى مع كلبك.. تحملينننى بين يديك.. عل ذراعيك.. وتدنين فمك الدقيق من وجهى وتقبّلينننى فألاعبك وأضع يدى على كتفك وأنظر فى عينيك وأمسح خدى بخدك.. على فكرة.. وقبل أن أنسى».

فتركت الضحك، وأقبلت علىَّ تسألنى: «نعم..».

قلت: «هل تستطيعين أن تخبرينى أو تبينى لى كيف يسعك أن تأكلى»؟

فاستغربت، وقالت: «لست أفهم.. لماذا تظن أنى لا أستطيع أن آكل»؟

قلت، وأنا أضحك: «هل تسمين هذا فما؟ أنه أدق من أن يتسع لأصغر لقمة.. يصلح أن يكون قرنفلة أو ما يشبه ذلك».

فقاطعتنى، وقالت: «والآن اسكت قليلا.. لقد دار رأسى.. لماذا تتكلم هكذا»؟

فهممت بأن أقول شيئا ولكنها أراحت كفها على شفتى فلثمتها، فابتسمت وقالت: «لقد كنت أفكر فى جزاء لما علمتنى وقلت لى لتملأنى غرورا.. ولكنك أفسدت كل شىء.. أخذت جزاءك بنفسك».

قلت: «لا.. لا.. لا.. نمسح القبلة».

قالت: «كيف يمكن»؟

قلت: «هكذا.. بشفتى».

فأطرقت قليلا، ثم رفعت رأسها وقالت: «لو سألتك عما تحب أن يكون جزاؤك منى، ماذا كنت عسى أن تطلب؟ أفهم أن هذه مسألة نظرية بحت».

قلت: «الجواب حاضر.. وما أظن بك ألا أنك تعرفينه.. وهل هو ألا أن تعدّينى كلبا لك»؟

قالت: «هذا سهل».

فصحت مسرورا وأنا لا أكاد أصدق: «إيه»؟!

قالت: «لا تتعجل.. على مهلك.. لا تنس أن كلامنا كله نظرى».

فارتددت وتنهدت أسفا محزونا، فقالت وهى تربت لى على كتفى: «لا تحزن يا كلبى العزيز.. أنت كلبى.. ألم تقل ذلك»؟

قلت: «نعم.. ولكن الكلب له مزايا.. لا تنسى ذلك».

قالت: «يحسن أن تتدرب عليها التدريب الأول..».

فقاطعتها وصحت بها: «لا.. لا.. إنى طول عمرى كلب متدرب من زمان.. كلب عتيق.. والله».

وضحكنا ...

وافترقنا على موعد للتدريب الثانى.